المرتكزات الجمالية والفكرية في قصص وروايات محمود أحمد السيد

الدكتور
علي إبراهيم
جامعة بابل

الرحال الخلفية الفكرية لمحمود أحمد السيد

لا يمكن الحديث عن (محمود أحمد أحمد السيد) رائد القصة العراقية دون المرور بـ (حسين الرحال) رائد الفكر التقدمي في العراق ، والعكس صحيح ، فقد جمع الرجلين أكثر من وشيجة فهما من جيل واحد حيث ولدا عام (١٩٠٣) ولكن لم يلتق السيد بالرحال إلا عندما بلغ العشرين من عمره وكان الرحال قد عاد تواً من ألمانيا ،حاملا معه العلوم التي تعلمها في ثانوية ألمانية في برلين حيث استفاد من تجربة شيوعيي(سبارتيكوس بند) الذين أقاموا متاريسهم في شوارع المدينة عام ١٩١٩.(١) ويعد الرحال أول ماركسي في العراق حيث قرأ كتاب لينين (الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية) و (الدولة والثورة) وصحيفة (اللومانتيه) وجرائد أخرى منها (كابيه دي بولشفيك) وقرأ شعر(ناظم حكمت) وروّج الفكر الاشتراكي من خلال إقناع صاحب المكتبة العصرية(محمود حلمي) باستيراد النشرات الاشتراكية (٢) وقد

اعجب محمود أحمد السيد بالرحال من اللقاء الأول عندما سمعه صدفة يناقش قضية فلسفية عميقة .: " كل شعور يأتي من الدماغ إلى الحواس فهو كاذب ، وكل حس يصدر من الحواس إلى الدماغ حس صادق " (٣) وبواسطة الحواس يتعرف الإنسان على الأشياء الموجودة موضوعياً خارج دائرة دماغ الإنسان وهي إجابة على سؤال الفلسفة الأساسي الذي جعل السيد ينحو منحاً مغايراً عن الأفكار والتي استقاها من جامع (الحيدرخانه) حيث نشأ وترعرع .

لقد امتهن الرحال والسيد الكتابة الصحفية وإن تميز السيد عنه بكتابة القصة والرواية فضلاً عن كتابته للمقالات بل أن مقالاته "تحتل موقعاً مهماً في تاريخ المقالة في الأدب العراقي الحديث ،كما تكتسب أهمية خاصة من كونها تعكس الكثير من واقع الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية في العراق بين الحربين " (٤) وكلاهما (السيد والرحال) عشقا الحرية والتقدم وكانا رائدين في فهم واستيعاب الجديد . حيث إن الرحال كان مطلعاً على ما كتبه (الإفرنج) على حد تعبيره . وعلى الروايات العربية (المصرية والسورية) وله معرفة ببدايات القصة العراقية فقد قرأ (الرواية الايقاظية) لسليمان فيضي الموصلي وهو عليم بجوانب الفن القصصي وتتضح إمكانياته في هذا الجانب النقدي من خلال المقدمة التي كتبها حول رواية محمود أحمد السيد البكر(في سبيل الزواج) وإن أواصر الصداقة قد تعززت بينهما حيث أهدى روايته الثانية (مصير الضعفاء) "إلى الحر الأبي حسين بك الرحال".

وإن هذه الصداقة وصلت إلى حد المشاركة في كتابة مقالات يتوافر فيها "التكامل الذي تقتضيه طبيعة الموضوع الذي يستدعي معرفة اللغة الفرنسية التي تتوافر لحسين والتمكن من أساليب العربية الذي يتميز به محمود "(٥) ويرى أرشد الكاظمي " إن حسين الرحال حاول التأثير على محمود أحمد السيد ليتجه في كتاباته إلى معالجة الموضوعات الاجتماعية بدلاً من القصص ولكنه لم يفلح في مسعاه هنا"(٦) وهذا الكلام ليس دقيقاً إن لم

يكن خاطئاً فقد كتب محمود أحمد السيد عدة مقالات صدرت في كتاب تحت عنوان (القلم المكسور)،حيث نرى في مقالة (آراء وأفكار) دعوة لقلب الأنظمة والقوانين لكي تستريح البشرية المعذبة . وفي نفس المقال يطرح فكرة أراها متقدمة على زمانها وهي " كل حركة تقاومها بمثلها " ويشرح ذلك بقوله" هذه قاعدة يجب أن يعلمها البشر جيداً ، فلا يحاول أن يقاوم التيار الفكري بالنار والحديد بل . إذا أراد . فليوجد تياراً فكرياً ثانياً يصنعه إزاء الأول في معترك الحياة . حينئذ يرى كيف يسقط الفاسد . ويثبت العام الصحيح " (٧) وهي دعوة مبكرة للصراع السلمي الحضاري بين التيارات الفكرية والسياسية لو جرى الأخذ بها لتجنبنا الكثير من الدماء والدموع منذ العشرينات وإلى يومنا هذا .

وبسبب عمق العلاقة بين الرجلين ،جعل السيد من شخصية جلال خالد في روايته الموسومة بهذا الاسم معادلا موضوعيا أو مزيجا من شخصيتي السيد والرحال فكلاهما زارا الهند وتأثرا بالأجواء السياسية والاجتماعية وشعرا بالفوارق الطبقية العميقة وتلمسا نضال العمال والكادحين من أجل تحقيق مطالبهم العادلة . وتأثرا بشخصية (ف . سوامي) وتعلما منه أن النضال لا يمكن أن يكون إلا في الوطن نجد ذلك في الحوار الذي دار بين جلال خالد وبينه (٨) الذي قال : " نحن الذين ندعى بالوطنيين في الهند لا نبرحها " ردا على جلال خالد الذي بسر الهرب من الوطن بالحرية المستلبة والسجناء الذين يكسرون الصخر على قوارع الطرق .

ومما يؤكد أن جلال خالد هو حسين الرحال يذكر السيد في مقدمة الرواية "حقيقية ، استندت في كتابتها إلى مذكرات صاحبي جلال خالد الخاصة وإلى رسائله إلى أصحابه ، ورسائلهم إليه ... " وقد نشرهذه الرسائل في الفصل الثاني من الرواية بعد أن أذن له جلال خالد أي حسين الرحال كما هو واضح .واستند في كتابتها إلى أحاديث الكاتب الهندوي (. ف. سوامي) وهناك إشارة

في الرواية إلى زيارة الاثنين معا –السيد والرحال - إلى الهند : " قدر لي أن أزور الهند كما زارها صاحبي جلال خالد " (٩) وتشير الرواية إلى تقييم علمي لطبيعة المجتمع العراقي في ذلك الوقت حيث ترد العبارة التالية : " في العراق لا يوجد عمال بل فلاحون جائعون "

ويتعلم جلال خالد من الكاتب الهندي : " أن المثقفين الذين درسوا العلوم في أوربا والحاملين خلاصة ثقافة العصر الحديث هم طلاب الاستقلال للهند ، والحياة الحرة الهانئة لشعبهم والشعوب الشرقية المظلومة كلها " (١٠)

وكلاهما (السيد والرحال) دخلا في حلقة من المثقفين الثوريين كانت تحرص على أن تميز اشتراكيتها وتبحث عن تفسيرات ماركسية للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها ، وتعمل على نشر ما تتوصل إليه من استنتاجات " (١١)

ويذكر الباحث عزيز سباهي أن هذه الحلقة تتكون من : (عبد الله جدوع ، محمد سليم فتاح ، مصطفى علي إبراهيم ، إبراهيم القزاز ، عوني بكر صدقي ، عبد الحميد رفعت ، عبد الفتاح إبراهيم وفاضل محمد البياتي ، حسين الرحال ومحمود أحمد السيد.) .

وما يميز هذه المجموعة هو عدم امتلاكها لبرنامج محدد تسعى لتحقيقه وفي الحالات التي بحثت فيها قضايا سياسية محددة تكشف عن سطحية في المعالجة " (١٢)

ونرى أن الرحال في نشاطه داخل المجموعة ينصرف إلى معالجة القضايا الفكرية العامة إلى جانب محمد سليم فتاح بيتما يتخصص محمود أحمد السيد بالأدب .

بعد ذلك انتميا إلى الحزب الوطني العراقي الذي يتزعمه (جعفر أبو التمن).

وامتاز السيد بالتواصل مع الكتابة حتى وفاته بينما صرفت الرحال "

مشاغل الحياة ولم يعد يمارس نشاطا سياسيا وفكريا ذا أهمية سوى نشاطات صحفية (١٣)

وإذا تأثر السيد في البدايات بالرحال ، أو حين قلنا أن الرحال هو الخلفية الفكرية للسيد بمعنى مجازي ، هنا لا يعني أن ليس للسيد فكره ومصادره الثقافية إذ أن منبع ثقافة السيد هي التراث العربي حيث نشأ في بيت ديني ثم قرأ جبران خليل جبران ومصطفى لطفي المنفلوطي ، قاسم أمين ،سلامة موسى ، طه حسين ، عباس محمود العقاد ، مجلدات المقتطف والهلال ،ومجموعة الدكتور شبلي سميل و قد . قرأ لشارل وانير و(سر تطور الأمم) لجوستاف نوبون والذي ينعته بأحد غلاة الوطنية الإفرنجية ومن كبار أقطابها وقرأ أميل زولا ، و نظريات دارون وجان جاك روسو ، ولينين ،وفولتير ، وفرانسوا كويه ،وساهمت معرفته للغة التركية في التعرف على الأدب السوفيتي والروسي وكان تعرفه على هذا الأدب يعد نقلة نوعية في حياته الفكرية حيث قرأ لانطوان تشيكوف ،توغنييف ودستوفسكي ، وتولستوي ، مكسيم غوركي ،وقرأ الأدب التركي وبخاصة رشاد نوري ورجائي زادة ، وأرخمند أكرم ،وكل هذه المصادر وغيرها تشكل بمجموعها مصادر مهمة أسست ثقافة محمود أحمد السيد في الجانبين الفني والفكري .

الملامح الفكرية السياسية لمحمود أحمد السيد

في أكثر من مكان يؤكد محمود احمد السيد على دور العمال ويعدهم قوام الحياة .والسيد لم يكن إصلاحيا بل كان ثوريا يدعو إلى التغيير الثوري حيث يقول : إذا كان في نيتكم يا قوم إن تنهضوا ، فاهدموا بنائكم القديم المتداعي الأركان بدلا من الترقيع والترميم أقيموا بعده صرح نهضتكم الجديدة التي ترغبون. (١٤) وهذا ما ورد في مقدمة مقالة (الحكمة العجوز) الذي يسخر فيه من تلك الأمثال التي تدعو الى الخنوع والسكينة واليأس

والقبول بالأمر الواقع.

لا يترك محمود أحمد السيد أية فرصة سانحة دون أن يتحدث عن الجانب الطبقي فنراه في قصة (بداي العايز) وهي إحدى قصص مجموعته (في ساع من الزمن) يتحدث عن فيضان الفرات ويقول : " الخطر كان أعظم ما يكون في الضفة اليسرى من النهر ، لأن أهلها كانوا أقل تهديدا من جيرانهم أهل الضفة اليمنى وأرضهم أوطأ من أرضهم وسدودهم أضعف من سدودهم " (١٥) ولا يكتفي هذه العمومية بل يفصل ويفرق بين الرؤساء في كلا الضفتين الذين يمتلكون الدور والأراضي وبين الفلاحين المعدمين .

وفي مقالة (أدب اليوم) يدعو الى النبوغ في العلم و الاجتماع قبل الشعر والخيال ·ومواقف محمود احمد السيد في رواياته وقصصه إزاء معالجة الموضوعات الاجتماعية واضحة فهو يدعو إلى:

١- حرية المرأة ومساواتها وبخاصة في اختيار شريك حياتها·

٢- محاربة الجهل ، الذي جعل البلاد وأهلها في أتعس الحالات .

٣- نشر العلم والإكثار من فتح المدارس .

٤- موقفه الطبقي من الأغنياء فقد جاء على لسان (حسن الفراتي) في رواية (مصير الضعفاء) يندر بين أغنيائنا من يهتم بالمصلحة العامة ، وفائدة الوطن

٥- دعوة لمقاومة المحتلين الإنكليز بعد أن احتلوا البصرة فالقرنة فالعمارة عنوة،فتغير الحال وتنكرت الأيام للناس ، وأقيمت المشانق للهاربين من صفوف الجيش "(١٦)

٦- تناول السيد موضوعات من الريف العراقي .

٧- كان للسيد موقف واضح من الغرب من أمريكا تحديدا . وهو متحيز لنضال الشعوب ضد المستعمرين ، فهو مع السود ضد التمييز العنصري (الأبيض) ومع الشرقي ضد الغربي ...الخ وموقفه من الغرب ليس مطلقا فله

استثناءاته ، نراه يميز بين فلاسفة الإفرنج الذين يحتقرون الشرق والجنس الشرقي وبين غيرهم .

٨- السيد منحاز للاشتراكية ويراها " تثبت دعائم الحياة الصحيحة الراقية ومبادئ التضامن العام واحترام الحرية الشخصية وربط الفرد بالجماعة ارتباطا يكون به لهم ويكونون له" (١٧)

٩- نسمعه وكأنه يصرخ " انبذوا هذه التآليف الخرافية الجديدة من روايات بوليسية وقصص غرامية وحكايات خيالية أتتنا من بلاد الإفرنج . " (١٨)

هل نتبين من هذا الحديث موقف السيد من الجديد ؟ أم هو موقف من أدب الغرب الوافد إلينا عن طريق الترجمة ؟

من يقرأ أعمال السيد يجد أنه لا ينفي كل جديد بشكل مطلق بل كان واعياً بالآتي لنا من الغرب محددا إياه بما هو طارئ على الثقافة وهو ينبذ كل قديم ويدعوا إلى حرق الكتب البالية العتيقة

١٠- كان السيد يميل إلى العلم والإجتماع قبل الشعر والخيال إذ يقول " يجب أن يقرأ الشعب كتب الحقائق العلمية والعبر الإجماعية قبل السفسطات والخيالات . " (١٩)

١١- والسيد كان مطلعا على الفكر المادي وقد وجدنا إشارات في قصصه ورواياته ففي قصة (جماح هوى) يشير إلى إحدى شخصيات هذه القصة وهو مدرس يعتنق المذهب المادي ويذكر أن د. شبلي سميل من أول الدعاة إليه في الشرق العربي (٢٠)

١٢- كان السيد يروج للنضال ضد الاحتلال وهناك إشارات كثيرة في قصصه واعماله فيشير إلى النشاط المعارض المنظم المعلن وغير المعلن يذكر مثلا " الجمعية الاستقلالية التي تعمل في خفاء شديد " (٢١)

١٣- ويشير إلى ثورة العشرين التي أنهت عهد الاحتلال البريطاني العسكري المباشر للعراق .

١٤- موضوع الحرب من المواضيع التي تركت بصماتها على قصص السيد نجد ذلك واضحا في (أبو جاسم) ، (الدفتر الأزرق) وغيرها من قصص مجموعته القصصية (في ساع من الزمن)

المرأة في فكر ونتاج السيد :

وعلى الرغم إن المرأة في أعماله يظهر وجودها متناسبا مع وجودها في الواقع العراقي ، فمثلاً لم تظهر في(مصير الضعفاء) إلا في نهاية الرواية. والسيد مولع بترميز شخصياته بالحروف وكذلك بعض الأمكنة وبخاصة الشخوص النسوية كما في قصة (رسالة هجر) حيث نقرأ لترافقني إلى حيث نتنزه في (ص) أو حدائق (ك. ر) وفي قصة (شرق الهوى) يرمز للفتاة النبيلة بالحرف (س) ، دون أن يكون هناك مسوغ فني حيث نرى الكاتب في مكان آخر يذكر أسم الشخصية الصريح (سليمة إحسان) ، ولا يهمنا أن يكون هذا الاسم صريحا أم مستعارا. ، ولم يقتصر استخدام الحروف على النساء والمكان بل تعداه إلى الرجال أيضا فهو يستخدم الحرف (ف) رمزا لفتى قبيح فقير في تهذيبه . وهذا كله ليس بمعزل عن طبيعة العلاقات السائدة وتأثير الرقابة الاجتماعية والسلطوية .

ويعالج في قصصه قضية محو العار وتطهير العرض من الدنس كما هو الحال في(نكتة العمامة) والتي ترتكز على حكاية شعبية معروفة ربطها بموقف الغرب من تلك العادة التي تعبر عن بدوية الفرد العراقي التي تدفعه لارتكاب جريمتين قبل أن يتحقق من صحة المعلومة ولكي لا يقال له أن في عمامتك نكتة سواء .وهي قصة ساذجة لم تضف شيئاً جديداً للحكاية الشعبية ولم يوظفها توظيفاً فنياً وفكرياً أكثر مما هي عليه .

ويرسم لنا السيد صورة المرأة العاهرة التي لم تخلق بغياً ولم تكن سليلة عائلة فاسدة بل كانت سيدة طاهرة عفيفة مطلقة ثم تجعلها الظروف وهجر

حبيبها لها بشكل مفاجئ تنحدر باتجاه الخمرة والتدخين ويرينا من خلالها بيت الدعارة كفضاء انتقالي هذا النموذج من النساء يتجسد في شخصية عاتكة في القصة التي تحمل الاسم نفسه ، وفي قصة (الذكرى) يرينا المرأة الريفية ذات الوشم الكثير والخلاخل من الذهب والأساور والضفائر .كما يتناول شخصية الراقصة والمرأة المخدوعة والمطلقة .

وفي الجانب السياسي تبني الرجال والسيد قضية المرأة ضمن نشاط المجموعة التي كانت تجتمع في غرفة محمود أحمد السيد في الحيدر خانة ولكنهم " دخلوا معركة تحرير المرأة وكرسوا لها معظم نشاطهم الفكري والصحفي دون أن يرسموا لهم خطا واضحاً لمعركتهم أو غاية سياسية ينشدونها من ورائه ، كان كل ما يشغل بالهم هو أن ينتصفوا للمرأة ويهاجموا قيماً وأعرافاً تهضم حقوقها ودون أن يفكروا بردة الفعل وآثارها " (٢٢) .ولكن ينبغي القول أن تبنيهم لهذا الموضوع في ذلك الوقت يعد جرأة منهم ويضعهم في مصاف الرواد المدافعين عن حقوق المرأة العراقية في مجتمع سادت فيه العلاقات الإقطاعية وشبه الإقطاعية وتمط عيش هجين في المدينة وما تفرضه هذه الأنماط من علاقات اجتماعية وبخاصة العلاقة بين الرجل والمرأة . ويرى السيد أن المرأة في الرواية والواقع مظلومة مستلبة الحق كهؤلاء العمال وهذا الفهم الذي يجمع بين اضطهاد المرأة الاجتماعي وبين اضطهادها الطبقي العام يدل على وعي السيد المبكر لهذه القضية المستعصية .

محمود أحمد السيد مترجماً

يرى محمود أحمد السيد أن من واجب الأدباء أن يدخلوا القصة إلى مكتبتنا عن طريق ترجمة مختارات من الآداب المختلفة وبخاصة " الآداب الشرقية من روسيا وتركيا ، متحفظا على نقل القصص الإفرنجية بسبب الاختلاف النفسي على حد تعبيره . وقد مارس الترجمة عن التركية ونشاطه في

هـذا المجـال اتسـم بالمنهجيـة وضـمن اختيـارات تتوافـق وتوجهـه الفكـري والسياسـي .فنراه يسبب اختيار قصص رشاد نوري لترجمتها وذلك لكونه "نزاع في قصصه إلى الحرية معبودة الفريق الناهض من الشعوب الشرقية المكدودة في هذا العصر؛ نزاع إلى هدم التقاليد البالية ، نزاع إلى شن الغارة الشعواء على المحافظين الرجعيين" (٢٣) وهكذا يمكن القول أن السيد كان منسجما مع روحه الشرقية ومع عصر العشرينات والثلاثينيات من القرن الماضي حيث الجهل والتخلف والأمية السائدة في المجتمع ومن الصعب استثناء المثقفين عن عموم السكان بل أن المثقف كان يعيش ازدواجية جديدة متأتية من الصراع بين الثقافة الجديد ة التي تلقاها عبر علاقاته واطلاعه على حضارة الغرب وثقافته والاقتناع النظري بمنطلقاتها وبين موروثه الثقافي الاجتماعي التاريخي الكامن في بناء شخصيته .

وبما أن السيد يجيد اللغة التركية فقد اقدم على ترجمة بعض القصص التركية لرشاد نوري ولأرجمند أكرم وترجم تلخيصا لرواية (البعث) لـ (تولستوي) .وامتازت تجربة السيد في الترجمة بما يلي:

١- يلجأ لتقديم تلخيص للرواية محاولا إعطاء فكرة عما يدور من أحداث ثم يصور لنا طبيعة الشخصيات وحركتها داخل الفضاء الروائي .

٢- يختار القصص ذات الأحداث التي لها مساس بواقع المجتمع العراقي .

٣- نجد الحس الطبقي واضحا في اختيار قصصه المترجمة ويمكننا الإمساك بتحيزه للمظلومين وأبناء الطبقات المعدومة وكذلك الموقف ضد الطبقات الأرستقراطية .

٤- نجد أن محمود السيد يخرج عن النص المترجم ويطرح رأيه ثم يستطرد في توضح موقفه من أحداث الرواية ويتمادى اكثر من ذلك فيقطع حديثه ويدعوك للعودة للقصة لمعرفة الواقع بدقة : "أشير عليك بقراءة نصها لتطلع عليها بأوضح مظاهرها ...ولنعد" (٢٤) ويعود إلى الترجمة النصية للرواية

٥- نلاحظ بين طيات القصة أو الرواية المترجمة مجموعة من الآراء النقدية إذ لم يقتصر عمله على ترجمة العمل مختصراً فقط بل يحاول تحليل وتقويم الموضوع فكرياً وجمالياً فهو يقول على سبيل المثال لا الحصر في تقييمه لرواية (البعث) لـ (لتولستوي) " وأني لأسخر من هذه الخاتمة حقاً " (٢٥)

بعض الملاحظات الفنية في كتابات السيد

يتوزع نتاج محمود أحمد السيد بين القصة والرواية والمقال الصحفي . ووجدت كما وجد الباحثون من قبلي وكما يراه السيد نفسه أن النتاج القصصي للسيد قد مر بمرحلتين الأولى تمثلت بكتبه الثلاثة : (في سبيل الزواج) و(مصير الضعفاء) و(النكبات) وقد كتبت هذه الأعمال خلال عامي (١٩٢١-١٩٢٢) ثم انتقدها السيد وعدها " روايات غرامية فاسدة وسخيفة " واتسمت بالبدائية والسذاجة " ولا قيمة فنية لها إنما تأتي أهميتها من كونها تمثل مرحلة أولى من مراحل الكاتب الفنية ، وتعكس في الوقت ذاته طابع القصة العراقية وخصائصها في الفترة الأولى من العشرينات " (٢٦). ويمكننا القول إن السيد أول كاتب ينتقد نفسه بهذه الجرأة وهذا ما يؤكد جدية كاتبنا وحرصه على تطوير فن القصة والرواية في العراق .

والمرحلة الثانية والتي جاءت بعد توقف دام خمس سنوات ثم بدأ من جديد وقد استهلها برواية (جلال خالد) والتي عكست تجربته وحسين الرحال في الفترة التي قضاها في الهند وثم كتب بعدها مجموعتين قصصيتين هما : (الطلائع) و(في ساع من الزمن) وتمتد هذه المرحلة من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٩.

ويمكن أن تعتبر كتابات السيد الصحفية المرحلة الثالثة من حياة السيد لا بترتيبها الزمني بل لأهميتها الفكرية والفنية حيث تناولت مواضيع مهمة منها دعوته لتحرير المرأة والوقوف ضد القديم البالي والترويج للتفاعل مع الجديد .

منذ أن ظهرت الرواية عالميا وهي تهتم برسم الشخصيات ، ويشكل

الزمكان عصب الرواية الأساسي أضف إلى ذلك أمور أخرى لها أهمية كبيرة أيضا ومنها السرد القصصي ، الوصف ، التزامن والتناوب ، وكل العناصر والأساليب التي لابد من توافرها في الرواية . ولكن من الصعب بل من الخطأ التعامل مع نتاجات السيد أو غيره من الرواد بأدوات نقدية حديثة على الرغم من أن هذه الأدوات عالجت وتعالج النتاج الأدبي الذي ظهر في القرن التاسع عشر أبان ظهور روائع الأدب الروسي والفرنسي والإنكليزي والأمريكي .

أننا نتعامل مع كتابات محمود السيد ليس بمقاييس الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها تلك الروائع بل بمواصفات الحالة الاجتماعية – الاقتصادية – السياسية للمجتمع العراقي في العشرينات من القرن العشرين وهي الحالة التي تنعكس على واقع الثقافة المتخلف قياساً بما وصل إليه الغرب .

ظهور السيد جاء أثناء وبعد مرحلة ظاهرة قصص الرؤية ورواية سليمان فيضي (الرواية الايقاظية) وعلى هذا الأساس وبسبب إخلاصه لفن القصة وتواصله معه كماً ونوعا يعد محمود أحمد السيد رائداً للقصة العراقية و أن بداية القصة في العراق ظهرت في العشرينات من القرن العشرين وهي الفترة التي يمكن أن تورخ بها بداية القصة الحديثة في العراق " (٢٧)

ويذهب د.عبد الإله أحمد إلى أبعد من ذلك حيث يشير إلى أن السيد " من الروائيين الذين شاركوا في بناء القصة العربية ووضع أسسها لا القصة العراقية وحدها " (٢٨) وقد بنى الدكتور عبد الإله رأيه هذا على أساس التزامن بين بدايات السيد ومحمود تيمور وغيره من الرعيل الأول من كتاب مصر ،ولكن هل يمكن أن يعد التزامن أو المجايلة أو الريادة سبباً لأن يأخذ الكاتب مثل هذا الدور الكبير ؟

أعتقد أن ذلك لا يكفي إطلاقا ، هناك أسباب أخرى كثيرة منها نوع النتاج وسعة انتشاره في الوطن العربي وموقف النقاد من الكاتب كل هذا وغيره يجعل الكاتب يتبوء موقعا ريادياً ولكنا لم نلمس ذلك لا في الدراسات

التي تناولت هذه الموضوع ولا في تصريحات كتاب ذلك الزمان .ولا حتى في تقوم د. عبد الإله أحمد الذي يعد قصصه في مرحلته الأولى عبارة عن أحاديث اجتماعية اتخذت شكل القصة تسرد بطريقة تقريرية جامدة، وتخلص إلى نصائح ومواعظ ودروس بالأخلاق .فيها ضعف في الحبكة والأسلوب وهي قصص طويلة مختصرة وأنت تقرؤه فترى نفسك أمام دفتر من طلاب المدارس الثانوية وترى أغلاط النحوية والإملائية كما ترى ضعف الربط بين الجملة والجملة والعبارة والعبارة " (٢٩)

ونحن إذ نسلم بهذه الحقيقة لا يعفينا الواجب والإخلاص من البحث المتواصل سواء في تلك البدايات أم في أدب محمود أحمد السيد الذي نحتفل اليوم بمرور قرن على ميلاده وكل ما قلناه وسوف نقوله لا يقلل من مكانة السيد الريادية في فن القص والفكر التقدمي

الملاحظ على السيد هو ولعه في توظيف نماذج أجنبية واتخاذهم أبطالا لقصصه ورواياته فقد كتب السيد رواية كاملة أبطالها من الهند-أصلاً وأسماء - تدور أحداثها في فضاء روائي ليس عراقيا هو (بومبي) هذه الرواية هي (في سبيل الزواج) التي لا يربطها بالعراق سوى أن كاتبها عراقي . وتجدر الإشارة إلى أن السيد نشر ملخصاً لهذه الرواية دون ذكر الأسماء..

ربما أستخدم السيد الشخصيات الأجنبية وسيلة للتخلص من الرقابة سواء أكانت اجتماعية وهي ما تفرضها العادات والتقاليد السائدة في المجتمع أم سلطوية التي تقف بالضد من حرية التعبير . وهذا الأسلوب ليس جديدا في القص العراقي فقد سبق السيد عطاء أمين الذي وظف الحلم (الرؤية) وغيره يستحضر التاريخ ويسقط عليه موضوعا من الواقع .

إن موضوع رواية (في سبيل الزواج) لا يتطلب تهرباً من أية رقابة ف (أورانجي) أحد الشخصيات الرئيسية يسكن في قصر كبير وليس لديه سوى ابنته الوحيدة (كستور) وهذه ترتبط بجنارمان سراً وهناك رجل يدعى (فتى

الجبل) وهو لص وزعيم عصابة مشهور أحب (كستور) ولم يستطع والدها رفض طلبه بيتما رفض تزويج ابنته من حبيبها (جينارام) الذي كان سباق في طلب يدها . ويترك الكاتب القارئ حائراً لا يدري لماذا يرفض هذا الشاب الذي يمتلك كل الصفات التي تؤهله للزواج وفي نهاية الرواية يكشف الروائي سر الوالد حيث يظهر أنه كان لصا وشريكا لفتى الجبل . إذ أن موضوعها عادي ويمكن أن يدور في فضاء ما من بلادنا ، وشخصيات عراقية.

أعتقد أن ذلك ممكنا وهذا ما فعله الكاتب نفسه في روايته الثانية (مصير الضعفاء) والتي كتبها بعد سنة من الرواية الأولى أي عام ١٩٢٢ وكانت أحداثها تدور بين الموصل وبغداد.متناولة موضوعاً مشابها.

وأحيانا ينهي السيد روايته بموعظة مباشرة مثلما رأينا في ملخص قصة (في سبيل الزواج) حيث يختمها بهذه الدعوة على شكل تساؤل " متى يفيق الشرقيون من رقدتهم فيقتصون للمرأة من الذين هم لها معادون وعليها حانون ولروحها قاتلون"(٣٠) ويتكرر هذا الوعظ في قصة (ناصح القوم) من مجموعة النكبات وفي قصص أخرى غيرها .

محمود أحمد السيد وزميله حسين الرحال موضوع مهم ومتشعب وفيه مجالات واسعة تحتاج إلى الدراسة والبحث وهذه مساهمة أولية أطمح إلى توسيعها في القريب العاجل .

مصادر البحث

(١) أنظر حنا بطاطو ص٤٠

(٢) أنظر أرشدا لكاظمي ، الثقافة الجديدة العراقية العدد ٤ (٧٢) ، نيسان ١٩٧٥

(٣) الطاهر علي جواد الطاهر ، محمود أحمد السيد ، رائد القصة العراقية ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، تموز ١٩٦٩ص ٢٩

(٤) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، من مقدمة الكتاب التي كتبها كل من : د. علي جواد الطاهر ود. عبد الإله أحمد ، المصدر السابق ص٨

(٥) د. علي جواد الطاهر ، المصدر السابق ص ٦٧

(٦) أنظر أرشد الكاظمي المصدر السابق ص٣٣

(٧) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، إعداد وتقديم الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور عبد الإله أحمد ،منشورات وزارة الثقافة الفنون الجمهورية العراقية، ١٩٧٨ ص ٢٤٩

(٨) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص

(٩) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٧٣

(١٠) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٩٠

(١١) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ١٠٣

(١٢) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ١٠٥

(١٣) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ١٠٦

(١٤) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٥١

(١٥) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص٤٦٠

(١٦) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٣٤٦

(١٧) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٣٩

(١٨) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٣٦

(١٩) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٢٦١

(٢٠) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٣٩١

(٢١) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٣٨١

(٢٢) عزيز سباهي ،عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي ، الجزء الأول ط١ ، ستة ٢٠٠٢ منشورات الثقافة الجديدة ص ١٠٥

(٢٣) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٤٣٤

(٢٤) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٤٣١

(٢٥) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص ٤٣٣

(٢٦) نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨-١٩٣٩منشورات دار الشؤون الثقافية العامة ' آفاق عربية ' ، ط٢ ،١٩٨٦ ص١٩٤

(٢٧) د. علي إبراهيم ، الزمان والمكان في روايات غائب طعمه فرمان ، دار الأهالي ، دمشق ط١ ٢٠٠٢ ص٦١

(٢٨) نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨-١٩٣٩، المصدر السابق ص ٢٠٩

(٢٩) نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨-١٩٣٩، المصدر السابق ص ١١

(٣٠) المجموعة الكاملة لقصص محمود أحمد السيد ، المصدر السابق ص١٥٠